

بين حراء... وعرفات

للأستاذ عبد المنعم خلاف

أجساد العباد الذين لم يؤمنوا به حتى أحبوه أكثر من نفوسهم التي بين جنوبهم، فهم في يده يقذف بهم على كل أفق وتحت كل كوكب ليكونوا امتداداً منه وظلاً من دعوته... وقد امتلأ قلبه بالأمل الوائق بأن الله متم نوره ومعل كلمته... وقد شبع عقله من جوع إلى المعرفة واتصلت به شرارة الوحي، وانتهت إليه ينابيعه فأضاء وصفا وعمق، فقيه لبني الإنسان الهدى والحلى والطهر.

وقد تعوض نظره من رهوس الجبال التي حول حراء، برهوس خاضعة من النساء والرجال الذين رباهم ثلاثاً وعشرين حجة في كل يوم بآية من الكتاب أو جملة من بيانه أو فعلة من سلوكه أو إيماء أوصمت... حتى صقلوا وصاروا أناساً كالنجوم المصابيح.

بين الكلمة الأولى الأمر المغيرة المثيرة لعقله وروحه بقصة خلق الإنسان ذلك الكون العجيب من علق، وقصة القلم ذلك الشيء العجيب الذي يجعل الدنيا كلمات بين البنان واللسان: «اقرأ باسم ربك الذي خلق» خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وبين الكلمة الأخيرة المخبرة الممثلة بكال الدين واختيار الطريق: «اليوم أكملت لكم دينكم...» دار الفلك ثلاثاً وعشرين دورة على محور من ذلك الرجل الذي كان عقله مرآة لما يدور في السماء حول صلاح عمارة الأرض. وما هو ذا يقف معلناً أن الزمن قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وأن حركة بدم واستهلال وولادة ثانية للإنسانية تتمخض عنها الأيام والوالدات...

وإنها لكلمة ثقيلة التبعات لأنها حديث عن ابتداء الزمن واستدارته كهيئته في اليوم الأول. ومن هذا الذي يجرؤ على الحديث بها إلا أن يكون نبياً؟

إذاً هو الأب الثاني للبشر وُلدت منه الإنسانية ولادة روحية وعقلية كما ولدت من آدم بالجسد. ألم يستدر الزمان معه كما بدى مع آدم؟ ألم تبلغ البشرية به رشدًا وتترك طفولتها وسفهاً ووقوفها عند المجسمات من الأرباب والمعجزات؟ ألم

وقف الرجل الذي تلخص فيه مجد الإنسان وتحقق به وشاع منه على عرفات في حجة الوداع، وقد احتشدت حوله في ذلك الرحب الصامت الرهيب الذي فيه أول بيت وضع للناس، الأزمان والدهور وأرواح الملأ الأعلى والرسل والحكام وأعضاء الإنسانية وحامل المشاغل على طريقها، وأفواج الخلائق من عالم الدر والبرزخ، وأجساد أولئك المتجردين من لبس المحيط والمحيط من صحابته المخبيين... ومن فرق الحشد الخفي والمستعلن ينظر وجه الله ذو الجلال إلى عبده ورسوله وهو يلقي الكلمة الخاتمة للبلاغ الأخير بالآيات المنزلة من حول العرش: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً...» ويعلن حقوق الإنسان وواجباته ويسأل الجموع المحشودة: هل بلغت؟ فتردد البطاح والأودية والشعاب التي كان يأوي إليها في طلب الهدى ثم في التخلي بالدعوة ثم في الجهاد لها - الجواب الإجماعي في اقرار وشكران

وما بدى من أن الكلمة الأولى: «اقرأ باسم ربك...» التي طالعه بها الوحي في حراء، كانت تتردد على سمعه في تلك البرهة الخالدة، فتوالى أمام مخيلته عزائم جهاده في الأرض التي كان كل قدس فيها رجساً، وكل بركة فجرة، وكل امرئ آثماً في عقيدة القلب، خرقاً في رأى العقل، ضارباً في معاملة الخلق، طفلاً في طقوس العبادة... أيام أن كان يتخفى بالغار في حيرة وانفراد ورهبة وضمت وشك وفراغ، وأعصاب مرهفة، وقلب مفجوع بالضلالات المعقدة، وعقل عظيم، ولكنه أعمى ينظر إلى كون مبهم مختلط نظراً لا يقع إلا على قمم الجبال وصفرة الرمال وأمم تحنو على أصنام من الأناسي والأحجار والأخشاب، ومواكب من النجوم تبدأ كل يوم من الشرق وتروح إلى الغرب في قهر وصمت وطواعية ووجوم... وهو ذا الآن على عرفات في استعلان ومعرفة وحشد وطمأنينة وضجة ويقين وامتلاء في العقل من عالم الشهادة، وفي الروح من عالم الغيب، وفي البدن

يسلمها مفاتيح الطبيعة ويهبها إلى الفكر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء، وكيف بدأ الخلق؟ ألم يرفع الحجب والكشافات بينها وبين ربها الأقرب إليها من جبل الوريد؟ ألم يمج الفوارق بين أجناسها وألوانها وأوطانها كما يمجح الأب الحاني الفوارق بين بنيه من الجسد والروح؟ ألم ينهها أن تفقر ما ليس لها علم وأن تتبع الظن الذي لا يقنى من الحق شيئاً؟ ألم يدعها إلى أن تؤمن بجميع الرسل والأنبياء وبما أنزل الله من كتاب؟ ألم يعلن حقوقها وواجباتها وأخوتها ومساواتها والعدل بينها؟ لأن ربها واحد وأباها واحد، ألم يترك لها ميراثاً خالداً منظماً مستوعباً شؤونها وحيوانها في البيت والجماعة والحرب والسلام والعاجلة والآجلة؟ ولم يترك موقفه الأخير منها وهي أمامه في عرفات مثلة في الحبشي بلال الأسود والرومي صبيب الأصفر والفارسي سلمان الأبيض والعربي في العدد الأكثر إلا وقد أخذ منها قراراً ببلاغه الأمانة وأدائه الرسالة وأشهد الله على ذلك. ولو سكتوا لنطق الحصى الذي كان يرحم به في بدء الدعوة وحطام الأصنام التي هشمها يمينه في يوم الفتح..

أيها الرسول المتقذ اكلته إقرار بالبلاغ يرسلها القرن الرابع عشر في فجر عام جديد لتلحق بإقرار صاحبك في فجر القرن الأول ويوشك الزمن أن يأخذ هذا الاعتراف من أفواه أهل الأرض جميعاً بعد أن ابتدأوا يعرفونك وينصفونك.

لقد بلغت كتاب الدنيا ورسالة كل شيء، إلى القلوب السليمة الكبيرة فجعلت من كل شيء محرراً تقف فيه لعبادة الله ذي المجد، وحب الحق والخير والجمال..

ولا يزال صوتك يدوي في الآفاق محترقاً أربعة عشر قرناً بسرعة الشمس والضوء، ولن يزال كذلك يعلن الكلمة التي أضادت لها الظلمات وقام عليها صلاح العالم.

الحقوق والواجبات التي خصصت حياتك لتقريرها وأعلنتها في الخطبة الجامعة على الحشد الذي لم تلقه بعد كما توقعت.. صارت أمجدية الإنسانية ومزموراً مائتاً، حملها العباد الذين كلفتهم حملها من شهداء مقامك وسمعوا بلاغك أو سمعوا به، حملوها أنهاراً تجري من الصحراء أرض الجفاف إلى الوديان

والسهول المخصصة بالنبات، الكزّة المجذبة من فضيلة الإنسان. فامرعت بالخير والحق والجمال والسلام وقد نارت البشرية لهذه الحقوق بعدك ثورات عدة كلما بدأت رموس الأصنام البشرية أو الحجرية تتحرك بعد أن قمتها وحطمتها بيرهاتك وفصلك.. فالثورة الانجليزية لإقرار الشورى، والثورة الفرنسية لإعلان حقوق الإنسان.. إنما هما صدى يحكي في خفوت وضآلة ويطء وتخلف، ثورتك الكبرى على الأرباب الزائفين والطواغيت وعناصر الدمار والفساد التي تافك الإنسانية وديعة الله في الأرض وتصرفها عن وجه الله ذي الجلال ومقام الحق ونصاب العدل

وشتان ما بينهما وبينها! إنها ثورة رجل يهتف في بوق النبوة له قلب فيه مدد من هدى الوحي، وسلام من رحمة الروح، وله يد بريئة من الإثم والجبروت تضرب أحياناً بمضغ الطيب لإذهاب الألم لا لأحداثه. وكلاهما وبخاصة الفرنسية ثورة دامية قاسية عيياء ضارية، قامت بها أيدي أرضية حيوانية فيها أظافر ومخالب.. تدفعها قلوب فيها أطماع وغل وحقد مؤرث. ومن عماها أكلت الخطب والأيدي التي كانت تقدمه، ولطخت وجه الحرية بآثام وشناعات لا تزال تغض منها وتثير حول ذكرائها. سخطا واشتمزارا، والتاريخ ميزان.

(بنياد)

عبد المصم مفرف

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة الرسالة،

الثن ١٢ قرشاً